العلاقات الجوهرية

بين اللغتين العربية والآرامية «السريانية»

في النواحي التاريخية والفنية واللغوية والأدبية

- ١ -

(١) نطاق البحث

ان مجرد نظرة بسيطة الى ما يحويه هذا البحث من النقاط الهامة ، وقلة المصادر الأساسية التي تبلغ بالباحث الى كنه المواضيع الدقيقة المحصرة فيه ، تدل دلالة واضحة على ما فيه من الوعورة والتعقيد ، إذ ليس من السهل التطلع الى أمور تاريخية في هذه الأهمية ، والخروج منها بنتائج صائبة ، وما زال البحث فيها ضمن الترجيح ، وأحياناً في نطاق التخمين . ولكننا بعد الاتكال على الله ، نحاول هذه المحاولة وإن كانت محاولة جريئة بحد ذاتها ، إلا أنها - إذا تكللت بالنجاح - ستضع أموراً كثيرة في هذا المضمار أمام الباحثين علهم يتوصلون الى بعض الحقائق التي لم يبت بها الى الآن في ميدان فسيحة أرجاؤه ، بعيدة آفاقه ، مترامية أطرافه ، نظير هذا الميدان .

والعلاقات التاريخية بين هاتين اللغتين الشقيقتين ، قديمة كقدم انبثاقهما من اللغة الأم ، وليس من السهل الإحاطة بكل تلك العلاقات ، وقد أرخى الزمن على معظمها سدول الإبهام ، وغطى بعضها الآخر بخمار الظلام ، إلا أننا سنلقي نظراتنا الى هذه العلاقات منذ فجرها ، ونحاول إظهار تطورها في العصور المتتالية وإن كانت مصادرنا ضئيلة في هذا المضمار .

أما العلاقات اللغوية ، فنجدها أكثر وضوحاً وأقرب منالاً من الأولى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لتيسر المادة اللغوية أمامنا بعد دراسة دقيقة لهذه المادة في اللغتين ، وعليه يمكن الخروج بحقائق واضحة قد يستفيد منها الباحثون في هذه الناحية .

والوجهة الأدبية في علاقة اللغتين الشقيقتين ، هي الوجهة الجميلة المشرقة ، لأنها تتصل بصميم الحياة المثلى فيهما ؛ والمرور في هذه الخمائل العابقة بعبير الشعر والأدب الحي ، هو لدينا كالمرور في جنة غناء تجري من تحتها الأنهار .

أما الوجهة الفنية ، فإنها وجهة الجمال الحي المتصل بالذوق الفني ، وهي أساس أول لسير اللغتين في اتجاه واحد ، من الينبوع الأول الى المحجة الأخيرة ، وليس الفن إلا أساساً للذوق السليم ، والشعر الجميل ، والأدب الرفيع ، والتاريخ الصحيح .

فنطاق البحث إذاً يتصل بكل هذه الأهداف الهامة ، ويشمل كل هذا الفضاء العلمي الواسع ، فالى ذلك أيها القارئ الكريم ، وقبل أن نضع على بساط البحث أي شيء من هذه النقاط الأربع ، يجدر بنا أن نلقي بعض النظرات الى اللغة السامية الأم ، لأن ذلك يتصل بصميم بحثنا ، ولأنه لا يمكن ولوج أبواب هذا البحث الدقيق دون العودة الى الينبوع الأول والمصدر الأصلي لهاتين الشقيقتين الكريمتين .

(٢) السامية والساميون ، واللغة السامية الأم

١ — التسمية السامية . — ادعت دائرة المعارف البريطانية [١] أن أول من استعمل كلمة « اللغات السامية » لهذه المجموعة من لغات الشرق الأوسط هو شلوتسر Shlozer في بحوثه التاريخية سنة ١٧٨١ م [٢] ، وجاراها في هذا

(١) دائرة المعارف البريطانية بعنوان Semitic languages ص ٦١٧ الطبعة ١١ المجلد ٢٤ .

(٢) Eichoyns Repertorum Bd 8. p. 161

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الادعاء اسرائيل ولفنسون في كتابه « تاريخ اللغات السامية »[١] ، ثم سرى هذا الزعم عند علماء المشرقيات ، ولكن المصادر السريانية تدحض هذا الزعم ، وتؤيد أن هذه التسمية قديمة العهد جدا ، يرتقي تاريخها الى ما قبل القرن السابع الميلادي ، وأول عالم سرياني أطلق هذه التسمية على مجموعة اللغات الشرقية هذه هو يعقوب الرهاوي المتوفى سنة ٧٠٨ م[٢] . وجرى العلماء السريان على اثر الرهاوي فاستعملوا هذا الاصطلاح قبل « شلوتسر » بقرون كثيرة ، منهم المؤرخ السرياني المجهول في القرن الثاني عشر[٣] وابن العبري في القرن الثالث عشر[٤] ، فيكون الزعم بأن شلوتسر أول من استعمل هذا الاصطلاح بعيداً عن الصحة ، لأن العلماء السريان سبقوه الى ذلك بعدة قرون ، ولكن مما يؤسف له أن هذه المؤلفات ما زالت بلغتها السريانية بعيدة عن أعين الباحثين المعاصرين .

٢ — من هم الساميون ؟ وأين كان موطنهم الأصلي ؟

هذان سؤالان لا بد من الإجابة عنهما قبل البلوغ الى حديث اللغة الأم ، واليك ذلك :

الساميون هم سلالة سام بن نوح حسبما جاء في سفر التكوين[٥] ، فعنه اشتق العلماء هذه التسمية فأطلقوها على الأمم المنحدرة من تلك السلالة العظمى ، وهي تشمل أمماً شرقية كثيرة عرفها التاريخ بحضارتها القديمة ، وغزواتها الموفقة ، ودولها الكبرى في هذا الشرق كله ، وذلك منذ أقدم العصور .

(١) اسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ص ٢ .
(٢) الأيام الستة للرهاوي ص ١٦٨ .
(٣) التاريخ السرياني المجهول ص ١٣ طبعة رحماني سنة ١٩٠٠ .
(٤) كنز الأسرار ، الفصل الرابع .
(٥) سفر التكوين ص ١٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما موطنها الأصلي يوم كانت أمة واحدة فقد اختلف فيه الباحثون أيضاً اختلافاً شديداً ، ومن هذا الاختلاف نستطيع بلوغ الحقيقة الكبرى التي يجب إعلانها بجرأة وصراحة .

وللعلماء في هذا الموضوع ثلاثة مذاهب : الأول يدعي أن الموطن الأصلي للساميين هو أرض بابل [١] ، ويدعي الثاني أنه هضبة ارمينيا [٢] ، ويذهب الثالث الى أنها الجزيرة العربية [٣] ، وقد أوردنا هذه الآراء الثلاثة في بحثنا « تحقيقات تاريخية ولغوية في حقل اللغات السامية المطبوع سنة ١٩٥٣ » [٤] ، ولم نعلق عليها بشيء ، إلا أننا الآن لا بد من التعليق عليها ، فإن لم نصب كبد الحقيقة ، نعتقد أننا نقترب منها كثيرا .

إن هذه المذاهب الثلاثة لم تسلم الى الآن من النقص ، ولم يتفق العلماء على واحد منها ، لوجود أدلة تخمينية لكل منها ، الأمر الذي يجعلها جميعاً في حيز الظن والتخمين من جهة ، ولمحاولتها اصدار الأمم السامية الكبرى من بقعة واحدة ضيقة ، كأرض بابل ، أو هضاب ارمينيا ، أو الجزيرة العربية من جهة ثانية .

وإذا كانت كل هذه الآراء عرضة للنقد من أصحاب الرأي الآخر ، لعدم اتفاق العلماء عليها اتفاقاً تاما ، لا بد من ايجاد رأي آخر يوضع على بساط البحث ، علّه يلقي ضوءاً ولو ضئيلاً على هذه الناحية المظلمة ، وإذا كان نصيبه نصيب الآراء السابقة فلننتظر مرة أخرى ، ربما تظهر الكشوف الأثرية الحقيقة التاريخية الناصعة التي نوردها .

---

(١) T. Guidi : Della sede dei popoli sem.

(٢) T. G. Noldeke, Sem. Sprachen. p. 12

(٣) ولفنسون ص ٥ .

(٤) تحقيقات تاريخية ص ١٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويكفي الآن أن نقول إن الأمم السامية رأيناها منتشرة في بقاع كثيرة في هذا الشرق منذ أقدم العصور التاريخية ، وقد أشبع المؤرخون السريان هذه الناحية درساً وتحقيقاً . وقرّروا أن نطاق المنبت السامي كان أوسع جداً مما عيّنه علماء الاستشراق ، بل ربما يشمل جميع المناطق التي ذكروها مجتمعة ، وقد أكّد هؤلاء العلماء أن موطن الأمم السامية كان يمتد من حدود مصر والبحر الأحمر ، وشاطئ فينيقية وسورية ، ويشمل بلاد فلسطين وفينيقية وسورية والجزيرة العربية وما بين النهرين وآثور وأرض شنعار وبابل وحدود فارس وما يحيط بها والهند الغربية وما اليها [1] . وربما نفكر أن هذه المنطقة واسعة جداً لا يمكن أن تكون (منبتاً) لأمة واحدة كالأمة السامية ، غير أن واقع الحال يؤيد ذلك ، لأن الاكتشافات الأثرية دلت على أن كل هذه المناطق الواسعة وطأتها أقدام الساميين منذ أقدم العصور ، متنقلين من ربع الى آخر ذهاباً وإياباً ، وليس بحسب الموجات التي افترض العلماء تدفقها من بقعة واحدة من هذه البقاع .

والشيء الذي أدى بعلماء الاستشراق الى الظن بأن الساميين وردوا إما من هضاب أرمينيا أو من بلاد بابل ، أو من جزيرة العرب ، هو وجود آثار أقدامهم في كل هذه المناطق متنقلين لا يقرّ لهم قرار ، وهذا التنقل أدى الى انقسامهم فرقاً وقبائل وأفخاذاً اتخذت كل فرقة اسماً خاصاً طبقاً لنمط حياتها ، والتفرق هذا أدى الى تكتلات قبلية من جهة ، والى اختلاف اللهجات واستقلالها بمثابة لغات خاصة من جهة ثانية ، على ما سنرى عند تعريف معنى كلمة (العرب) ومعنى كلمة (آرام) .

وإذا ألقينا نظرة شاملة الى هذه المناطق الواسعة ، لا بد لنا من تعيين « قلب » لها جميعاً يمكن أن يكون بمثابة الينبوع الأصيل لتدفق هذه السيول

(١) التاريخ السرياني المجهول ص ١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البشرية الجارفة ، وانتشارها وتنقلها في هذه الأرض الواسعة . ويجب أن يكون هذا « القلب » النابض مهبط أول مدنية بشرية في هذا المحيط ، وقد دلت الاكتشافات الأخيرة على أن أول مدنية رآها التاريخ نشأت في سهل شنعار[1] وشملت القسم الشمالي للجزيرة العربية ، وامتدت بعد ذلك الى بقية المناطق المجاورة .

ويجدر بنا بعد الآن النظر الى هذه الآراء الثلاثة الماضية مجتمعة لنكون منها رأياً واحداً صائبا ، فاذا سلمنا بالرأي القائل إن المدنية نبتت في أرض شنعار ومنطقة بابل ، نسلم حتماً بأن المدنية تفرض حياة ناعمة موفقة للأشخاص والأسر والجماعات ، لما تجنيه من الخير والبسر والرفاهة بالزراعة والتجارة والثقافة ، الأمر الذي يجذب اليه البدو رويداً رويداً فيصبغهم بصبغة الحضارة والمدنية بصورة تدريجية ، فيتجمعون من كل صوب الى مهد الحضارة ليرفعوا مستواهم المعاشي من حالة البداوة الى حالة الحضارة والاستقرار .

ونحن نرى هؤلاء البداة يتجمعون من كل صوب الى مهد الحضارة بشكل غزاة يريدون مقاسمة اخوانهم المتحضرين خيرات الأرض ، ونتائج الأعمال المجدية ، فتنشب بينهم وبين الحضر حروب تنتهي بغلبة المهاجمين تارة ، والمدافعين طورا ، وهذا ما حدث فعلاً على مسرح هذه المناطق في جميع مراحل التاريخ .

واذا افترضنا أن الساميين انتشروا بسرعة في كل المناطق المذكورة في رأي العلماء السريان من جهة ، ورأي المكتشفات الأثرية التي تجعل منطقة بابل مهداً للحضارة من جهة ثانية ، نسلم حتماً بأن القبائل السامية المتبدية أغراها نمط الحياة الناعمة التي كان يعيشها اخوانهم الحضر تحت ظل الحضارة والمدنية ، فتجمعوا من كل صوب ليقاسموا إخوانهم تلك الحياة الناعمة ، فرآهم العلماء

(١) مجلة سومر المجلد ٣ الجزء ١ ص ٨٨ سنة ١٩٤٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بصورة موجات غازية يندفعون كالزوبعة الى مركز الحضارة ، ويستولون عليه ويتخلقون بأخلاق أهليه ، ويتخذون نمط حياتهم نبراساً للحياة المستقرة الجديدة ، وقد جاء بعض هؤلاء البدو الغزاة من قلب الجزيرة العربية ، وبعضهم هبط من الحدود الشمالية ، وهدفهم جميعاً مهد الحضارة والمدنية في أرض شنعار ومنطقة بابل ، وهذا ما حدا العلماء على أن يعدوهم موجات صادرة من المناطق التي عاشوا فيها مدة من الزمن ، وبالتالي أن يجعل كل فريق الناحية التي اندفعت منها هذه القبائل موطناً أصلياً لها ، بينما نجد الأمر ليس كذلك ، بل انهم أبناء أرومة واحدة انتشروا أولاً في طول هذه المناطق وعرضها بالنسبة الى أساليب حياتهم ، ثم عادوا فتجمعوا حول هذه المنطقة المحضرة للأسباب التى شرحناها الآن ، فتكون والحالة هذه منطقة الأمة السامية واسعة جداً تجمع بين جميع المناطق التي ذكرها المستشرقون كمصادر للقبائل السامية المتفرقة .

ونحن لا ندعي أن هذا الرأي هو القول الفصل في هذ القضية التاريخية الهامة ، بل نقول انه تعديل للآراء السابقة المتناقضة ، ولا سيما أن لنا أسناداً تاريخية واجتماعية تؤيده (١) .

---

(١) من المعقول ان ينتقل الناس من الحياة البدوية الى الحياة الحضرية ، ومن غير المعقول أن ينتقلوا من الحضارة الى البداوة . ومن الثابت أن جميع الحضارات القديمة المعروفة التي نشأت في العراق وفي الشام قد أنشأتها قبائل بدوية أتى معظمها من جزيرة العرب على موجات متوالية ، بعد أن جف إقليمها وقلت أمطارها . ففي عهد الحجر المنحوت أي منذ عشرة آلاف سنة على الأقل كانت جزيرة العرب كثيرة المياه غزيرة الأمطار ، ثم أخذ إقليمها يجف وصارت قبائلها تنتقل في أراضيها انتجاعاً للكلأ . وكلما ازداد الجفاف فيها وأمكنت السكنى في الهلال الخصيب حيث بدأ الإقليم يعتدل كانت قبائل الجزيرة العربية تنتقل اليه ، وهنالك استطاع بعضها أن يوجد بعد زمن طويل تلك الحضارات التي عرفت في التأريخ .

والعلماء القائلون بأن جزيرة العرب هي مهد الساميين عددهم كبير منهم شبرنجر وشرادر وسايس ودُغوْيه وبروكلمن وكُسُوْك وغيرم وماير وغيرهم . والأدلة التي ذكروها تأييداً لرأيهم كثيرة ومقنعة . (التتمة في ذيل الصفحة التالية) —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ ـ اللغة السامية الأم :

عاشت اللغة السامية الأم في العصور التي سبقت التاريخ البشري ، وانتشرت مع أهليها في جميع المناطق التي كانوا يرتادونها منذ أبعد الأزمان ، وعندما ولد التاريخ وترعرع فتح عينيه على محيًا بناتها اللواتي أصبحن كأعضاء لتلك الأرومة الشيخة .

يستفاد من بحوث العلماء في هذا الموضوع أن اللغة السامية كانت قليلة المفردات ، ليس فيها إلا ما يكفي الحياة البدائية ، ولم تكن بها حاجة الى جمال التعبير ، وتنميق الألفاظ والعبارات ، مما يشبه تماماً بعض اللغات البدائية في زمننا الحاضر .

وإذا أردنا معرفة ما كانت عليه هذه اللغة و فعلينا أن نلقي نظرنا الى الكلمات المشتركة المبثوثة في اللغات السامية التاريخية والحديثة ، فمنها نستطيع تأليف فكرة ولو بسيطة عن كيفية النطق باللغة الأم ، فقد تتفق اللغات السامية ـ وهي فروع للغة الأم ـ بأمور لغوية هامة كالضمائر والعدد وأسماء أعضاء الجسم والألفاظ اللازمة لحياة الإنسان المادية البدائية ، مثل البيت والجمل

وقد جرح نولدكه رأي القائلين بأن مهد الساميين أرض بابل ، واثبت تهافت هذا الرأي . ولم يقم دليل ما على الرأي القائل بأن افريقية هي مهد الساميين ، أي أن الشعوب السامية أتت الى جزيرة العرب والى الهلال الخصيب من افريقية ، بل تدل الأدلة التأريخية على عكس ذلك .

أما ما ذكره العالم جون بيترس من أن موطن الساميين قد يكون أرض ارمينية ، لأن الانف الحني يشبه كل الشبه الأنف العبراني ، فقد فنده الأستاذ جواد علي بجملة صغيرة فيها صحة وطلاوة وهي : « لقد نسي » أي العالم المشار اليه « ان العرب وهم من الساميين لم يرزقوا هذا الأنف ! »

وفي الصفحة ١٥٢ وما يليها من الجزء الأول « القسم السياسي » من كتاب (تأريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي معلومات مسهبة وآراء صائبة في هذا الموضوع . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والكلب والحمار والماء ، وأسماء بعض الأشياء التي يراها الانسان دائماً كالسماء والأرض الى ما هنالك من الألفاظ المشتركة مما يطلعنا على شيء من أساليب هذه اللغة من جهة ، ويؤيد أن هذه الألفاظ قديمة العهد جداً من جهة ثانية . وهنالك كلمات أخرى تشترك فيها هذه اللغات وهي الدالة على العمران والحيوان والنبات .

واذا استطعنا استخلاص القديم من كل اللغات السامية ، وتركيب لغة خاصة من هذه المادة القديمة ينفتح أمامنا بريق من الأمل في الوصول الى خيال لتلك اللغة من وراء جميع هذه العصور السحيقة الغابرة .

ولما كان علماء المشرقيات مختلفين في مهد الأمم السامية ومنبتها ، فهم مختلفون أيضاً في مهد نشوء هذه اللغة ، وقد استدل بعضهم على أنها نشأت في أرض بابل وما جاورها بدليل أن أرض بابل هي المنبت الأصلي للحضارة البشرية [1] . ولكن فريقاً آخر يعارض هذه النظرية معارضة شديدة [2] .

إلا أننا إذا سلمنا بأن الحضارة البشرية وجدت في حوض الفرات الأسفل ، يجب أن نسلم بأنه في هذه البقعة اشتغل الإنسان للمرة الأولى في التفكير والتمدين والتمصير مما يقرب النظرية الأولى من الحقيقة .

ولكن اذا عدنا الى الرأي الأخير ، وهو انتشار الأمة السامية بقبائلها في جميع المناطق في الشرق الأوسط ، تحتم علينا التصريح بأن اللغة أيضاً انتشرت بانتشار الأقوام التي كانت تتكلمها .

ومهما يكن الأمر فليس تعيين منبت هذه اللغة بمهم جداً بالنسبة الى بحثنا هذا ، إنما المهم انتقالها الى لغات حية عاشت زمناً طويلاً ، وذكرت في آثار تلك الأقوام ، واطلعتنا بقدر الامكان على نمط حياتها المادية والأدبية ، وهو

(١) T. Guidi : della sede dei popoly sem.

(٢) Noeldeke : Sem. Sprachen p. 14.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما يفيدنا أكثر مما تفيدنا معرفة منبت تلك اللغات أو منبت اللغة الأم معرفة مضبوطة .

وانك لتجد تعليقات وآراء كثيرة حول اللغة السامية في دائرة المعارف البريطانية [1] لا تتعدى كونها دراسات تخمينية . وكذلك قل في البحث الذي كتبه اسرائيل ولفنسون في مؤلفه «تاريخ اللغات السامية» [2] ، لم نر فيه أكثر مما ورد في دائرة المعارف المشار اليها . وبعد هذه اللمحات العابرة ننتقل الى موضوعنا الأساسي ، وهو العلاقات بين اللغتين العربية والآرامية (السريانية) .

٣ ـ العرب والآراميون

قبل بحث العلاقات بين اللغتين العربية والآرامية (السريانية) يجدر بنا معرفة من هم العرب ، ومن هم الآراميون ، واليك ذلك :

من المؤكد أن الساميين أمة واحدة نشأت وانتشرت انتشارها الواسع المعروف ، ولنتخط البحث في سائر الأفخاذ السامية ، ولنفرد منها فخذين اثنين سمي أحدهما «العرب» والآخر «الآراميون» . فمن هما هذان الفخذان الساميان ؟

وقبل أن نعرف من هما ، يجدر بنا تصوّر الأمة السامية تضيق بها أرض منبتها ، ويلجأ بعض القبائل منها الى مغادرة تلك الأرض لغرض الحصول على المعيشة اليومية الحيوية ، فتتفرق هذه القبائل هنا وهناك نازحة عن موطنها الأصلي ، فينتشر بعضها في الفيافي والسهول ، ويتوقل غيرها في الهضاب ، ويبقى القسم الآخر مقيماً في أرضه . أما تاريخ هذا التفرق فليس معروفاً الى الآن ولا حاجة بنا الى بحثه .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢٤ الطبعة ١١ ص ٦١٧ – ٦٢١ .

(٢) تاريخ اللغات السامية ص ٢ – ٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويظهر أن القسم المقيم أطلق بعض الأسماء الجديدة على الاقسام النازحة ، وذلك بحسب طبيعة الأرض الجديدة التي نزحت اليها ، ومن هنا أتى اسم العرب واسم الآراميين ، إذ سمي النازحون الى الفيافي والسهول بـ (العرب) وسمي النازحون الي الهضاب بـ (الاراميين) . ولماذا ذلك ؟ وما معنى الكلمتين ؟

« العرب » كلمة سامية قديمة معناها (سكان الصحراء أو البيداء) حفظت في اللغات السامية المنحدرة من اللغة الأم ، فنجدها سواء في العربية (العرباء) وفي الارامية (ܥܪܒܐ) Arobo وفي العبرية ערבה Arbat[1] فيكون « العرب » والحالة هذه القبائل النازحة الى الصحراء والبيداء الذين سموا أيضاً (البدو) .

واما كلمة « ارام » فهي أيضاً كلمة سامية قديمة مركبة من كلمتين جاءتا في بعض اللغات السامية ومنها الآرامية نفسها والعبرية ، والكلمتان اللتان ركبت منهما هذه اللفظة هما ܐܪܥܐ ܪܡܬܐ Aréo romtho الأرض العالية[2] فيكون الاراميون والحالة هذه القبائل النازحة الى الهضاب والأراضي المرتفعة ، وزد على ذلك أن المؤرخين القدامى يقولون إن الاراميين هم ولد « ارام » بن سام بن نوح[3] .

واذا قرنا أن كلمة « عرب » تأتت من الصحراء والعرباء ، وكلمة « آرام » نشأت من الأرض المرتفعة ، يستطيع الباحث المتبصر أن يستنتج أن الموطن الجديد للقبيلتين هو الذي أوحي باسميهما ، وينتقل الى استنتاج الموطن الأصلي للأمة السامية كسهول بابل مثلاً أو ما يشبه ذلك .

(١) قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست ج ١ ص ٨٨ طبعة بيروت سنة ١٩٠١ وقاموس منا السرياني العربي ص ٥٦٥ طبعة الموصل سنة ١٩٠٠ واسرائيل ولفنسون تاريخ اللغات السامية ص ١٦٤ .

(٢) قاموس الكتاب ج ٢ ص ٥٧ .

(٣) سفر التكوين . الفصل العاشر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

غير أن التاريخ يؤكد ان هذه القبائل السامية ، وإن اتخذت لها مواطن جديدة بعد جلائها عن موطنها الأصلي ، كانت لا تزال تتصل بعضها ببعض اتصالاً محدوداً ، ولغايات خاصة إما اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك ، وعلى هذا مثل هذه العلاقات بين سكان وادي الرافدين وسكان أقسام كثيرة من الجزيرة ، كما نشأت علاقات أخرى بين سكان الجزيرة والقبائل التي سميت بالآرامية من جهة أخرى ، الأمر الذي يؤيد ان سكان جميع هذه المناطق كانوا يستطيعون التفاهم بل كانوا يشعرون بأواصر القربى التي تشد بعضهم الى بعض .

وأقدم ذكر لسكان الصحراء في الآثار المسمارية ورد منذ عهد شلمناصر الثالث ملك آشور ، وسمي فيه أولئك الصحراويون بالعرب ، وذلك في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، وتردد ذكر « العرب » في المآثر المسمارية بعد هذا التاريخ في مناسبات كثيرة بصيغ مختلفة منحدرة من مادة واحدة هي البادية أو الصحراء [١] .

ووردت كلمة « العرب » في نصب داريوس على حجر « بهستون » وذلك بصيغة Arabaya الموافقة للفظ الآرامي المختص بالعرب أو العربي ، كما وردت هذه التسمية « العرب » في مواضع كثيرة من التوراة [٢] ، وسميت أحياناً أخرى في التوراة « بجبل المشرق » [٣] و « أرض المشرق » [٤] و « أرض بني المشرق » [٥] ، ومع هذا لا يُعلم العهد الذي استعملت فيه كلمة « العرب » دلالةً على القومية

---

(١) Reollexikon der Assyriologie, Araber

(٢) سفر الملوك الأول ١٠ ، ١٥ وسفر الأيام الثاني ٩ ، ١٤ و ١٧ ، ١١ وسفر اشعيا ٢١ ، ١١ – ١٣ و ٤٢ ، ١١ و ٦٠ ، ٧ وسفر ارميا ٤٥ ، ٢٤ و ٤٩ ، ٢٨ و ٢٩ .

(٣) سفر التكوين ١٠ ، ٣٠ .

(٤) تكوين ٢٥ ، ٦ .

(٥) تكوين ٢٩ ، ١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو العنصرية اللغوية . والذي عول عليه كثيرون من المؤرخين أن ذلك عرف منذ الجاهلية حيث سميت الجزيرة باسم « جزيرة العرب » .

وأما الآراميون ، فعرفهم التأريخ في جهات الفرات الأوسط منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، حيث هبت ريحهم ونمت لغتهم وثقافتهم وقوميتهم ، وكذلك لغتهم الآرامية أخذت بالانتشار مستقلة منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، وشاع اسمهم في المصادر المسمارية منذ عهد تغلاثفلاصر الأول ملك آشور حوالى سنة (١١٠٠ ق . م) [١] على ما نعلم حتى الآن .

على أن أقدم نص مكتوب ذُكر فيه الاسم الآرامي ورد في سفر التكوين حوالى سنة ١٧٤٠ قبل الميلاد ، وذلك أن « لابان » الحراني الذي تسميه التوراة « بالآرامي » ، وهو خال يعقوب أبي الأسباط ، عندما وقع العهد مع ابن اخته يعقوب ، وقعه بالآرامية وسماه (يَجَرْ سَهَدُوثَا) (يغر سهدوثو) ، أي (نصب الشهادة) . وكتبت هذه الجملة الآرامية في التوراة العبرية بصيغتها الآرامية التي وردت فيها ؛ [٢] وهذا أول أثر نعرفه حتى الآن للغة الآرامية بل أقدم نص ذكر فيه الاسم الآرامي .

ويتوارد اسم « آرام » و « الآراميين » في المراجع الأثرية والتأريخية مرات كثيرة بعد التأريخ الذي عيناه الآن [٣] . وكذلك في التوراة حيث تخبرنا عن الدويلات الارامية المنتشرة في كل مكان مثل (ارام صوباة) و (ارام صوبا) و (ارام معكة) و (ارام النهرين) و (ارام دمشق) و (ارام بيت راحوب) و (فدان ارام) .

---

(١) G. H. kraeling, Aram and Israel « 1918 »

(٢) سفر التكوين ٣١ ، ٤٧

(٣) « Luckenbill, Ancient Records, 1, 239, 399, » Ancient Records of Bob, and Assyria, 1, 73; Hitti, op. cit, 162.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإذا علمنا أن أول ذكر للعرب كان في أواسط القرن التاسع ق . م ، بينما أول ذكر للآراميين في أواسط القرن الثامن عشر ق . م نجبر على القول حتماً بأن الآراميين يسبقون العرب في القدم تسعة قرون كاملة ؛ إلا أننا لا يجب أن نحسب هذا القرار نهائيا ، فعدم ذكر العرب الى أواسط القرن التاسع لا يدل على عدم وجودهم كأمة سارحة في بيدائها ، لأن انعزالهم في تلك البيداء البعيدة أدى الى تأخر ذكرهم في المصادر المسمارية وغيرها ، لأننا (طبقاً لما ورد في التوراة على عهد ابراهيم الخليل ، وكان معاصراً لحمورابي ملك بابل المعروف ، وهو في نحو القرن العشرين ق . م) ، نجد قبائل كثيرة ذات ابل وغنم وخيل تنتقل في المراعي الخصبة وتعود الى الصحراء ، وتسكن الخيم وتعيش عيشة البدو الذين عرفوا بـ « العرب » . وهذا ما يؤيد وجود العرب موازياً للآراميين على وجه التقريب ، ويؤكد لنا وجود العرب قبل التأريخ الذي ورد ذكرهم فيه بأزمان طويلة .

٤ – نشوء اللغتين العربية والآرامية

لم يستطع العلماء الى الآن تعيين الوقت الذي استقل فيه هذان الشعبان العظيمان عن الأرومة السامية القدمى ، ولذلك عسر عليهم أيضاً تعيين الزمن الذي نشأت فيه لغتاهما بصورة مضبوطة ، ومهما يكن الأمر فنحن نرى أنهما نشأتا في عهد واحد على وجه التقريب ، وأهم البراهين على ذلك ما يأتي :

١ — تقارب الزمن الذي نشأ فيه الشعبان الشقيقان ، وذلك في نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، فنحن نسلم بأن « لابان » الحراني الذي سمي في التوراة « ارامياً » انحدر من عشيرة ابراهيم الخليل الذي جلا عن اور الكلدانيين (في جنوب العراق) ، وابراهيم نفسه كان يتكلم الآرامية بحكم موطنه الأول الذي كان يتكلم هذه اللغة ، وقد رافق ابراهيم أقواماً في شمالي الجزيرة وفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أواسطها هم عرب لا محالة ، وهؤلاء « العرب » الذين كانوا في تنقل دائم في طول الجزيرة وعرضها كانوا يتكلمون لغة خاصة بهم هي أم اللهجات العربية في التاريخ ، فلا بد اذن أن تكون اللغتان قد نشأتا في عهد متقارب ، وأن تكونا متقاربتين ، وإلا لما استطاع ابراهيم التفاهم مع رجال تلك القبائل التي رأينا له علاقات كثيرة بها حسبما ورد في التوراة نفسها [1] .

وزيادةً في التأكد نعود الى الآثار الخطية التي ظهرت أخيراً في جنوبي الجزيرة العربية ، وفي مملكتي (معين وسبأ) العربيتين القديمتين ، فقد رأينا أن الدول المتعاقبة في هذين القطرين العريقين في القدم تتصل بالدول القدمى في بلاد سومر وأكد وآشور ، ويرتقي تاريخ الكتابات المعينيّة وغيرها الى مطلع القرن العاشر قبل الميلاد . وتشير هذه الكتابات الى حضارات عربية ازدهرت في هذه المنطقة ترتقي الى مطلع القرن العشرين ق . م [2] ممّا يؤيد وجود اللغة العربية في هذا الجزء من العالم القديم معاصرة للغة الآرامية في القسم الأعلى للجزيرة ، وفي حوضي دجلة والفرات ، وفي مدينة حران وما جاورها ، وإن كانت لغة معين العربية تختلف عن اللهجات العربية الأخرى المنتشرة في شمالي الجزيرة ، والتي تأثرت باللهجات الآرامية والعبرية في العصور التالية ، وذلك نتيجةً لامتزاج بعض القبائل الآرامية والعبرية في غرب هذه المنطقة [3] .

٢ — تقارب اللغتين تقارباً يكاد يفوق تقارب أية منها هي وبقية اللغات السامية كما سنتكلم عليه فيما بعد .

---

(١) راجع أيضاً Hitti, op. cit, 164

(٢) راجع المؤلفات التالية :

مهد توفيق (القاهرة ١٩٥١) Les Manuments de Ma'in

احمد فخري طبعة ١٩٤٧ An Archaeological Journey to Yemen

K. Y. Nami, Les Manuments de Ma'in

(٣) تاريخ اللغات السامية — ولفنسون ص ١٦٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣ — لأن اللغتين في مطلع أمرهما كانتا تكتبان بأبجدية واحدة هي الأبجدية الآرامية القديمة (١) .

٤ — تعاون اللغتين في التكامل والحياة وتأثير إحداهما في الأخرى في مختلف عصور التأريخ وعلى الأخص في بادئ أمرهما ، مذ أخذت إحداهما عن الأخرى أساليب ومواد وألفاظاً كثيرة وذلك في جنوبي الجزيرة وفي شماليها ، كما سنرى .

٥ ــ مميزات كل من اللغتين العربية والآرامية في تطورهما

مما لا شك فيه أننا لا نستطيع دراسة كل لغة من هاتين اللغتين بمفردها ، من ناحية نشوئها واكتمالها وتطورها ، ما لم ننظر الى الأحوال التي مرّت بها أختها الثانية ، وذلك لأنهما نشأتا في ظروف متشابهة ، وطرأت عليهما أحوال متقاربة . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لا يمكن فصل أية لهجة من لهجاتها عن رفيقاتها للعلاقات الوثقى التي تربط بعضها بالبعض الآخر . فاذا أردنا السير مع احداهما منذ نشوئها الى نهاية نضجها لا بد لنا من الالتفات الى الخطوات التي تدرّجت فيها شقيقتها الثانية ، وعليه نقرر أن الذين درسوا نشوء اللغة العربية واكتمالها وحدها سقطوا في ورطات كثيرة كان في مقدورهم اجتنابها لو نظروا الى نشوء اختها الآرامية ونضجها .

وأهم المميزات التي نستطيع ملاحظتها في هاتين اللغتين الشقيقتين هي ما يأتي :

١ — كثرة اللهجات البدائية في كل منهما .

نشأت كل من هاتين اللغتين ولكل منهما لهجات كثيرة بالنسبة الى كثرة القبائل التي تتكلمها ، وكلما انفصلت قبيلة جديدة من المجموعة الكبرى ، وتباعدت عنها فترة من الزمن ، نشأت لديها عناصر لغوية جديدة ، وتطورت اللفظة بحسب المؤثرات القبلية والاجتماعية ، وتولّدت من ذلك لهجة جديدة من اللغة الأم ، وكلما تقاربت قبيلتان أو أكثر وتمازجتا زالت الفوارق اللغوية ،

(١) ولفنسون ص ١٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتكوّن من ذلك المزيج لهجة خاصة أخذت عناصرها اللغوية واللفظية من جميع اللهجات المتمازجة ، وهكذا حتى انتهى الأمر الى اندراس لهجات كثيرة ، وانفراد غيرها بالسيادة لدى أفراد الأمة وقبائلها .

ومما لا يرتاب فيه علماء الساميات أن القبائل القاطنة في أصقاع الجزيرة العربية النائية استطاعت الاحتفاظ بلغتها السامية الأصيلة احتفاظاً ملحوظاً ، فلم يطرأ عليها الا القليل من التبدل والتطور ، وذلك لبقاء هذه القبائل منعزلة مدة طويلة من الزمن عن بقية الأقوام ، على العكس من كثير من القبائل السامية التي تأثرت لغتها بالحضارات المجاورة القريبة اليها ، وهذه هي الميزة الخاصة التي تحوزها اللغة العربية دون بقية أخواتها الساميات .

ولكنه مع ذلك حدثت هجرات متواصلة لقبائل كثيرة من القبائل المتبدية في طول الجزيرة وعرضها ، وهو ما أثر في اللغة تأثيراً كبيراً فنتجت عنه لهجات متباينة كثيرة ، غير أن علماء الساميات اتفقوا على أن يميّزوا منها لهجتين كبيرتين ، إحداهما في الجنوب والثانية في الشمال ، مع أن كل لهجة من هاتين اللهجتين تفرّعت منها لهجات أخرى كثيرة ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية إن هذا التقسيم ليس دقيقاً لأننا لا نجد حدوداً طبيعية تفصل القسم الشمالي من الجزيرة عن قسمها الجنوبي .

إلا أننا اذا استعرضنا الرقم العربية المكتشفة في أصقاع كثيرة من الجزيرة ، نستنتج منها أنه لم يكن في الجزيرة لهجتان وحسب بل هنالك لهجات كثيرة يصعب ضمها الى قسمين متساويين ، وكل لهجة كانت تسمى باسم اقليمها أو تنتسب الى أكبر قبائلها ، ولم يكن لكلمة « عرب » أو « عرباء » المعنى الذي نعرفه اليوم ، بل كانت تطلق على جميع القبائل المنتشرة في البادية المتنقلة بحسب حاجتها الى الماء والمرعى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأشهر القبائل الكبرى التي عرفناها في الجزيرة العربية ، والتي درس العلماء آثارها الباقية ، هي القبائل اللحيانية والثمودية والمعينية . ومما لا شك فيه ان لكل قبيلة من هذه القبائل لهجة خاصة بها ، قد يتعذر على القبيلة الثانية فهم أكثر مفرداتها . وقد قدّم علماء الساميات دراسات قيّمة في لهجات هذه القبائل[1] .

ومع أن آثار هذه القبائل اللغوية هي عربية ، ولا سيما الرقم اللحيانية ، لأن فيها الحروف العربية التي تخلو منها بقية اللغات السامية كالذال والثاء والغين والضاد ، ولأن فيها أفعل التفضيل وعلامة التنبيه وهما من المميزات الخاصة بالعربية وحدها ، أقول : مع ذلك نجد هذه اللهجات مشوبة بكلمات آرامية على الأخص[2] ، وهو ما يدل على تعاون هاتين اللغتين الشقيقتين منذ أقدم عصورهما التأريخية .

هذا بعض ما وصل الينا من اللهجات العربية الشهيرة ، ومما لا نشك فيه أن هنالك لهجات كثيرة غيرها نشأت عند القبائل العربية الكثيرة ، ثم تقلصت رويداً رويداً حتى زالت من الوجود لاندماجها في اللهجات الكبرى الباقية .

وأما امتزاج هذه اللغات الكثيرة فقد حدث شيئاً فشيئاً . ومن المعلوم أنه في القرنين الثالث والرابع الميلاديين شرعت اللهجات الشمالية تنتقل من قوة الى قوة وتزيد أهمية وانتشاراً ، وتسجل لنفسها في جميع الميادين الحيوية صولة وانتصارا ، بينما أخذت اللهجات الجنوبية تنحدر نحو الهوة حتى كادت تزول في القرن السادس الميلادي ، وذلك من جراء فقدان مواطنها لحريتها ولاستقلالها السياسي عندما خضعت للحبشان والفرس ، وهكذا أخذت تلك اللهجات في التلاشي ، وقد أفسحت المجال لانتشار اللهجات الشمالية ، التي انفردت بالسيادة المطلقة تقريباً قبل ظهور الإسلام .

ومع هذا كنا نجد بعد الإسلام لهجات عربية متباينة ، والشاهد على ذلك

---

(١) W. F. Albright : « The chronology of Ancient South Arabia » in Basar, No 119 (1950).

(٢) E. Littmann : Thamudenische Inschriften, p. 28.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تباين لهجات القراءة حسبما هو معلوم من تعدد القراءات القرآنية الكريمة ، وهو ما يعرفه كل مطلع على هذه القراءات .

والشيء الذي يمكن تقريره بعد هذا العرض السريع أن اللغة العربية الباقية هي مزيج من لهجات مختلفة امتزجت كلها بعضها ببعض فكوّنت لغة واحدة .

ولكثرة اللهجات بحسب كثرة القبائل كثرت المفردات والجموع في اللغة العربية حتى أصبحنا نجد أسماء كثيرة لمسمى واحد كما هو معلوم ، ولما اجتمعت هذه اللهجات المختلفة ، وصارت لغة واحدة ، ظهر فيها بعض الألفاظ في مظاهر متباينة ، وصيغ مختلفة ، فنرى مثلاً كلمة « نجم » تجمع على أنجم ونجوم ونجم وأنجام وكلها بمعنى واحد ، ومثلها كلمة « عبد » فنقول في جمعها عبيد وعبد وعبدان وكلها بمعنى واحد .

وإنك لتجد أمثلة كثيرة لهذا النوع في المعاجم العربية ، وهي الدلالة الثابتة على أنها كانت كلها صيغاً مختلفة لكلمة واحدة ، استعملت كل قبيلة من القبائل صيغة خاصة بها ، ولما جمعت هذه المفردات والصيغ في المعاجم اللغوية ، نشأ منها هذا الفيض الغزير من المفردات الدالة على المعنى الواحد .

وما قلناه في نشوء اللغة العربية نقوله في نشوء اللغة الآرامية ، فهذه أيضاً مثل أختها العربية تفرّعت الى لهجات متباينة ، لا لكثرة القبائل الناطقة بها ، بل لاختلاط أهليها بالأمم المجاورة أكثر من اختلاط اخوانهم العرب ، وهو ما أضفى على اللغة الآرامية أثواباً جديدة لم تألفها في فجر وجودها ، ومما هو معلوم لدينا أن للآراميين لهجتين عظيمتين منذ الأزمان القديمة ، الأولى وتسمى شرقية ، وتشمل لهجات بلاد العراق عامةً ، والثانية وتعرف بالآرامية الغربية ، وتشمل لهجات سورية وفلسطين وطور سينا .

والفرق بين اللهجتين يعود الى كيفية النطق ، والى نوع الأعجمي من الألفاظ الدخيلة ، واتجاه الصيغ الأدبية وغيرها ، وكل لهجة منهما تركت آثاراً خطية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منذ أقدم العصور ، وقد درسها علماء الساميات إلا أنهم لم يستطيعوا الى الآن وضع كتاب في قواعدها وأصولها . ولكن اذا قابلنا النصوص الأثرية الكثيرة المكتشفة بما هي عليه اللغة الآرامية (السريانية) الآن ، نجد أن اللغة هي هي لم يطرأ عليها تبديل كبير ، وهو ما نستطيع معه أن نتوصل الى أصول اللهجات الأولى . وهذا ما سار عليه علماء اللغة الآرامية اعتباراً من القرن الرابع الميلادي الى العصور المتأخرة ، فتركوا لنا مجلدات هامة في قواعدها وأصولها ، ووضعوا المعاجم الهامة في تحري ألفاظها ومفرداتها ، على أن أعظم الذين تناولوا هذه المواضيع بالدرس الدقيق هو العلامة يعقوب الرهاوي في القرن التاسع ، (المتوفى سنة ٨٠٧ م) والفيلسوف غريغوريوس ابن العبري في القرن الثالث عشر (١٢٢٦ — ١٢٨٦ م) . ومما كتباه نستطيع المقابلة بينه وبين النصوص الأثرية التي بين أيدينا ، والتخطي الى استنتاج نتائج هامة لا يمكننا الوصول اليها بغير هذه الطريقة .

أما سبب نشوء اللهجات الكثيرة لهذه اللغة ، فهو سعة انتشارها ، وكثرة الشعوب التي امتزج بها أهلها ، فقد شملت بلاد الشام والجزيرة العليا والعراق الى حدود بلاد فارس شرقاً ، والى بلاد الأرمن واليونان وآسيا الصغرى شمالاً ، وحدود بلاد العرب جنوباً [1] . ولم يكن من الممكن حفظ هذه اللغة من التشعب الى لهجات شتى بحسب قابلية كل شعب من الشعوب المختلفة المتكلمة بها ، لذلك نرى فروقاً عظيمة بين لهجاتها حتى لا يكاد المتكلم بلهجة نينوى مثلاً أن يفهم المتكلم بلهجة الشام ، ولا هذان يستطيعان أن يفهما المتكلم بلسان فلسطين مما أثبته علماء هذه اللغة [2] .

(يتبع) (الموصل) غريغوريوس بولس بهنام

(١) اللمعة الشهية ليوسف داود ص ٧ .
(٢) المدخل لابن العبري : التعليق على الحركات السريانية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net